

ظاهرة الانزياح في التراث العربي

أ. نويجم مسعودة

جامعة زيان عاشور

ملخص:

لم تكن طريقة التصريح أو التكيف الاجتماعي أو النفسي أو الوجداني هي الوحيدة في فنون التعبير في البلاغة العربية ، بل فنون المجاز من تشبيه واستعارة وتمثيل وكناية هي موارد أخرى للتهافت الإنساني والامتداد الحضاري والبيئي . فالجهاز فن له دواعيه و أغراضه ، وهو طريق من طرق الإبداع البياني في كل اللغات ، تدفع إليه الفطرة الإنسانية المزودة بالقدرة على البيان ، وقد استخدمه الناطق العربي في عصوره المختلفة .

وليس المجاز مجرد تلاعب بالكلام في قفزات اعتباطية من استعمال كلمة أو عبارة موضوعة لمعنى إلى استعمال الكلمة أو العبارة بمعنى كلمة أو عبارة أخرى موضوعة لمعنى آخر..... بل المجاز حركات ذهنية تصل بين المعاني وتعدّد بينها روابط وعلاقات فكرية .

ويبدو لنا جلياً من خلال هذا القول - عن المجاز - أنه يرادف ويوازي بل ويطابق المعطى الأسلوبي واللساني الحديث وهو الانزياح الدلالي الذي يعدل وينتقل بمعنى الكلمة أو العبارة إلى معنى آخر منزاح عن المعنى العام أو المعنى الاصطلاحي في التخاطب .

الكلمات المفتاحية: الانزياح - التراث - المجاز - البلاغة - الدلالة - السياق - الخطاب.

Abstract

The method of declaring social, psychological or emotional communication was not the only one in the arts of expression in Arabic rhetoric, but the metaphorical arts of metaphor, metaphor, representation and metaphor are other sources of human strife and cultural and environmental extension.

Valmajz art has its causes and purposes, which is a way of creative graphic in all languages, paid to human instinct with the ability to manifest, has been used by the Arab speaker in various ages. The metaphor is not a mere manipulation of words in arbitrary leaps from the use of a word or phrase placed meaning to the use of the word or phrase in the sense of another word or phrase placed for another meaning but metaphorical mental movements between the meanings and the complexity of links and intellectual relations.

It seems clear to us through this statement - about metaphor - that it corresponds to and corresponds to and even corresponds to the modern methodological and linguistic subject, which is a semantic shift that modifies and moves in the sense of the word or phrase to a different meaning from the general meaning or the conventional meaning in the communication.

key words: Displacement - heritage - metaphor - rhetoric - significance - context - discourse.

الانزياح هو ما ميز لغة الشعر والأدب بالجمال والبيان. فإذا قلنا انزياحاً دلاليّاً فما هو في الحقيقة إلا مجاز بما يندرج في دائرته من تشبيه واستعارة وتمثيل وكناية في التراث القديم، فكل من المجاز والانزياح الدلالي يستعمل في معنى مختار ومنزاح عن المعنى الذي وضع للفظ إلى معنى خاص قد يصل إلى حد اللغز والرمز، لا يصل إلى فك مضمونه إلا الإنسان المزود بالقدرة على البيان، بل ولا بد لحدوثه قبل ذلك أن يكون الشاعر أو الأديب متمكناً وساحراً لغوياً وبيانياً .

وقد لا يكفي ما سبق لإبراز جذور الانزياح في التراث العربي ، ولذلك سنتطرق لإبراز ذلك من خلال دراستنا لنظريات ومفاهيم لغوية ودلالية لدى بعض اللغويين والبلاغيين القدماء لتقصي جذور الظاهرة الانزياحية.

1-1- الانزياح عند اللغويين والأدباء:

1-1-1- الانزياح عند "سيبويه"

مما حثنا على دراسة ظاهرة الانزياح عند "سيبويه" أنه كان من تلاميذ "الخليل بن أحمد الفراهيدي" فقد أخذ سيبويه "النحو عن" الخليل بن أحمد الفراهيدي "ولازمه وتلمذ عليه حتى قال عنه" أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي "" (ت: 351 هـ / 962 م): "هو أعلم الناس بالناس بعد الخليل ، وألف كتابه الذي سماه الناس "قرآن النحو" ، وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل"¹

استقرأ "سيبويه" فئة كثيرة من حالات مغايرة لأنماط التوليدية المرسومة للكلام المباشر الدال على الوضع الأصلي والتوصيل النمطي للنسق الدلالي الأولي في ذهن المتكلم، فعالجها معالجة متأنية صلب إعادة رسم تشكيلاتها السياقية النواتية بحثا عن ضروب الخروقات أو الانزياحات التي اكتنفت هذه التشكيلات الأساسية، وبغية كشف القيمة الأسلوبية والأسرار الدلالية والدوافع المقامية التي وقفت وراء إجراء هذه الانزياحات التي عملت على إفراز تقنيات أسلوبية وآثار دلالية متعددة ؛ إذ إن "الانزياح هو انحراف أسلوب عن اللغة المألوفة"، لذا أكد الأسلوبيو 2200 أن "أنه كلما تصرف مستعمل اللغة في هياكل دلالاتها أو أشكال تراكيبيها بما يخرج عن المؤلف انتقل كلامه من السمة الإخبارية إلى السمة الإنشائية"²، فكل انزياح في هيكل التركيب اللغوي يؤدي بنا إلى تحصيل التسامي الدلالي .

ولقد عد "سيبويه" الانزياح نوعا من الاتساع والجاز في الكلام وذلك لعدم تجسيده للدلالات وبيئتها الحقيقية، فالانزياح يتعد بالمعنى عبر تركيب خاص إلى معنى سام ينزاح عن الدليل النظمي المعياري.³

وإننا في رحلة دراستنا للظاهرة الانزياحية عند "سيبويه" ، استنتجنا أنه يقر بضرورة الانزياح اللغوي كأساس لحدوث انزياح دلالي ، سابقا بذلك المحدثين الذين أدركوا أن نظام الكلمات وهندستها شرط أساسي في الفهم والإفهام ، وأن لكل لغة نظاما معيناً لا يصح الإخلال به أو الخروج عنه⁴ ويتجسد الانزياح اللغوي في الاعتداءات التركيبية التي تتم على القوالب اللغوية الجاهزة ، ومن هذه الاعتداءات التركيبية : التقديم والتأخير ، الحذف والذكر ، التكرار ، القلب ، تغيير القول من الإيجاب إلى السلب أو من السلب إلى الإيجاب ...

"وينكشف لنا اهتمام "سيبويه" بالانزياح اللغوي من خلال ثنائية التقديم والتأخير بين عنصري الفاعل والمفعول أو بين عنصري المفعول والفعل أو بين عنصري مفعولين أو بين عنصري المبتدأ والخبر وغيره من الفصائل التركيبية ، فيشير إلى الانزياح اللغوي بين عنصري الفاعل والمفعول من خلال تحديد الدليل النظمي النواتي للتركيب الفعلي بتقديم ركن الفاعل على المفعول"⁵، مثلاً بنحو: "ضرب عبد الله زيدا"، وقد ميز إجراء عملية الانزياح على الهيكل التركيبي بقوله: "فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ ما جرى في الأول ، وذلك قولك "ضرب زيدا عبد الله"⁶ لأنك إنما أردت به مؤخرا ما أردت به مقدما ، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخرا في اللفظين فمن ثم كان حد اللفظ فيه أن يكون الفاعل مقدما"⁷، "قاصدا بالهيئة اللفظية الوظيفة الإعرابية التي يشغلها كل من عنصري الفاعل والمفعول على الرغم من تحويل موضعهما عن النمط الأصلي لكون الانزياح اللغوي يفرز مضمونا دلاليا يحقق غرضا بلاغيا واقتضاء مقاما"⁸ ، و لذا وصف هذا الانزياح بأنه "عربي جيد كثير ، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم يبيانه أعنى ، وإن كان جميعا يهملانهم ويعنيانهم"⁹. لكون تركيب "ضرب زيدا عبد الله" يمثل التركيب الفعلي التحويلي المولد من البنية الداخلية بوساطة قانون الترتيب للتركيز على من وقع عليه الحدث ؛ ذلك "أن الاختلاف الظاهري نتج من نقل إحدى المفردات "بقاعدة تحويلية اختيارية" من موقع إلى موقع آخر لتوكيد فكرة معينة ، ويستشف هذا العدول اللغوي بين عنصري الفعل والمفعول.

ويعمل لتحويل رتبته التوليدية غير المحفوظة بإرادة دلالة العناية والاهتمام بالعنصر المنزاح عن حيزه المعهود¹⁰ ، ونظرا لهذه المرونة التي تمتاز بها التراكيب اللغوية فقد فسحت مجالا واسعا للانفتاح على دلالات إضافية تحملها مكونات خطائية تخالف المؤلف منها ونقصد بذلك المعاني المجازية والتي تتجلى من خلال الخطابات الفنية، وفي هذا يورد "سيبويه" عينات مثل: "سرت الليلة أهل الدار" معلقا عليه بقوله: "فتجري" الليلة" على الفعل في سعة الكلام، كما قال: "صيد عليه يومان ، وولد له ستون عاما" ... والمعنى إنما هو "في الليلة وصيد عليه في اليومين" ، غير أنهم أوقعوا الفعل عليه لسعة الكلام¹¹ ويتعمق في توصيف هذه المجاوزة الدلالية الناجمة عن الانزياح كأن تقول: "على قول السائل: "كم صيد عليه؟"، و "كم" غير ظرف ؛ لما ذكرت لك من الاتساع والإيجاز فتقول: "صيد عليه يومان" وإنما المعنى "صيد عليه الوحش في يومين" ، ولكنه اتسع واختصر ولذلك أيضا وضع السائل "كم" غير ظرف ، ومن ذلك أن تقول: "كم ولد له؟" ، فيقول: "ستون عاما" ، فالمعنى "ولد له الأولاد وولد له الولد ستين عاما" ولكنه اتسع وأوجز ، ومن ذلك أن تقول: "كم سير عليه؟" و "كم" غير ظرف ، فيقول: "يوم الجمعة ويومان" ف "كم" هاهنا بمنزلة قوله: "ما صيد عليه، وما ولد له من الدهر والأيام؟" فليس "كم" ظرفا كما أن "ما" ليس بظرف¹².

ونستشف مما سبق أن سيبويه يذهب إلى أن الانزياح اللغوي يؤدي إلى انزياح دلالي أي أنه يخلق آثارا بلاغية وخاصة على مستوى النصوص الأدبية، إذ تتضمن نسقا مزدوجا من الدوال والمدلولات، تؤدي الدوال الأولى مدلولات أولية مباشرة وهي الدلالة التصريحية المفهومة من ظاهر التراكيب تحيلنا إلى مدلولات ثانوية غير مباشرة وهي الدلالة الإيحائية المستوحاة من النظام الدلالي الأولي ، ويقصد بذلك أن "المستوى الظاهر والخاص في هذا النسق المزدوج والذي يتمثل في دوال النسق الثاني، يشكل البلاغة وستكون الدوال البلاغية هي الدوال المتضمنة"¹³ ، وهذا يعود لأهميته ودور المجاز في الانزياح الدلالي ، فالجهاز هو فارس المعاني المنزاحة وذلك لانطواء "المجاز في حناياه على شيء أكبر من إثارة الخيال أو خلق ارتباطات جديدة ، فهو يحمل في أحشائه رمزية الحقيقة وينطق بها" . كما وقد أدرك "سيبويه" نوعين من الخطابات اللغوية، فأما الأول فهو الخطاب الإخباري النمطي "العادي" والذي يمثل درجة الصفر في اقتصاره على الوظيفة التعبيرية واحتواء المعنى الأولي وخلوه من الوظائف الفوقية الأخرى، وأما الثاني فهو الخطاب الفني الراقي الذي يبعد عما ألف من الكلام بغية خلق دلالات ومعان سامية.

وأمام تمييز "سيبويه" لنوعي الخطاب نصل إلى يقين يتمثل في إدراك "سيبويه" للظاهرة الانزياحية بجميع فروعها وتشعباتها، والتي لم يسعنا المقام للتطرق إلى كل حيثياتها ، إضافة إلى تأكيد على ضرورة الانزياح اللغوي كأساس لتحقيق الانزياح الدلالي الذي يعد السمة الذهنية للأدب عامة وللشعر خاصة باعتباره أرقى أنواع الخطابات وقد عقد "سيبويه" من خلال مؤلفه "الكتاب" باب هو "باب اللفظ للمعاني" في سياق حديثنا عن الانزياح اللغوي الذي يمثل قاعدة لتحقيق الانزياح الدلالي . فيقول: "اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ، واختلاف اللفظين والمعنى الواحد ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: "جلس" و "ذهب" ، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، نحو: "ذهب" و "انطلق" ، واتفاق اللفظين والمعنى مختلف قولك: "وجدت عليه" من الوجدة و "وجدت" إذا أردت وجدان الضالة وأشبه هذا كثير"¹⁴ ، وما يمكننا قوله أيضا ، وهو ما لفت انتباهنا ، سبق اللغويين القدامى كـ "سيبويه" لمعالجة قضايا لسانية حديثة كالظاهرة الانزياحية بكل فروعها وتشعباتها، لضرورتها في خلق معاني شعرية وخطابية راقية تتمثلها أجساد تركيبية لتوحي بمعان خارقة .

1-1-2- الانزياح عند الجاحظ :

لقد احتل الجاحظ الريادة في دراسة البيان العربي ، وقد أسهمت الدراسات الوضعية والعلمية بتحليلية جهوده ومعارفه في مختلف مجالات البحث العلمي وخاصة المجال البلاغي ، كما وحاول بعض الباحثين دراسة حيثيات الجاحظ البيانية في ضوء المناهج والنظريات الحديثة ، ومما اهتم به بشكل أدق وخاص ثنائية اللفظ والمعنى في الإنتاج النصي عموما والشعري خصوصا ، وهو ما يوازي حاليا وبالمصطلح الأسلوبي واللساني الحديث الانزياح اللغوي و"الدلالي" ، فقد وضع الجاحظ المعنى مع صياغة المعنى موضعاً تقابلياً ، فهو لا يتعامل مع أحدهما تعاملًا إيجابياً ويسقط السلبية على الآخر ولكن يجب الاستدلال بالأقوال التي تصف المعنى وتحدد كينونته البيانية ، وبالوسائل الدلالية الكاشفة عن أنماط تلك المعاني ، إذ قال: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمختلجة في نفوسهم والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم مستورة خفية ، وبعبارة وحشية ومحجوبة مكنونة وموجودة في معنى معدومة، وإنما يحیی تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم وتحليلها للعقل".¹⁵ فالمعاني كمادة أولية لصناعة الكلام، قائمة في صدور الناس جميعاً، تدور في أذهانهم وخواطرهم متاحة للعامة والخاصة ، وقيمة مثل هذه المعاني حسب " الجاحظ " هي الصفر فهي متداولة ومتناولة من قبل الجميع، لكن يوجد في مقابل ذلك معان حية صنعها الإنسان بالشعر فأخرجها من مكنونها لتؤدي وظيفتها التصويرية بلغة مختارة قادرة على استكناه تلك المعاني والإيجاء بها، فأصبحت ذات قيمة فنية أدبية، أي أنها انزياح دلالي بعيد عما أُلّف من الكلام بما يحمله من معاني ذات خصوصية وتفرد، ولكن تلك القيم تتفاوت حسب قدرة الوسيلة على التعبير والوسيلة بطبيعة الحال هي اللغة بما تسمح به من انزياحات تركيبية، [وما يساعد على تحقيق الشاعر للانزياح الدلالي هو المجاز ، وقد عبر الجاحظ عن وعيه لأهمية المجاز في توسيع دلالات الألفاظ ، فهو الحالة التي يمكن فيها إيراد المعنى بروافد بيانية متباعدة ويقول الجاحظ في المجاز: "هو فخر العرب في لغتهم - وبأشباهه اتسعت" ويقصد بأشباهه جميع صور البيان من استعارة وكناية وتشبيه، وما هذه كلها في الحقيقة إلا انزياحات دلالية أو تؤدي للاتساع الدلالي وثراء المعاني.

و قد أشار الجاحظ إلى أن العدول عن معاني الألفاظ الأصلية إلى معان مجازية يصوغه ترابط المعاني بسبب من الأسباب ، قال: "ويقولون: جاءتنا السماء بأمر عظيم والسماء في مكانها ، وقد يقولون أيضاً جاءتنا السماء ، وهم إنما يريدون الغيم الذي يكون به المطر..." فالمعنى البلاغي عند الجاحظ ليس رهين الدلالة اللغوية المباشرة ولا رهين ألفاظ بعينها " وشر البلغاء من هيا رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى، عشقاً لذلك اللفظ وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر إليه المعنى جرباً و يلزقه به إزاقاً¹⁶ ، و لكن معنى الكلمة مرهون بدورانها وتقلباتها في سياق التركيب اللغوي ، باعتبار أن الكلمة هي عضو وعنصر مهم حاملة للمعنى ومصورة له [فالمعنى يمثل الجوهر والماهية الروحية للتعبير اللغوي فجوهر الأشياء لا تنفصل عن تحققها المادي ، فقد أدرك الجاحظ أن المجال الذي يحقق للمعاني قيمها الشعرية هو تجاوز كينونتها الفكرية الأولى إلى وجودها وصيرورتها لغة مختارة تؤدي وظيفتها التعبيرية ، بتوصيل المعنى وتصويره فتكسب خاصيتها الشعرية والأدبية].¹⁷

[ولم ينظر الجاحظ إلى القيمة الشعرية على أنها لفظ ومعنى، وإنما نظر إلى الصياغة التي تصهر المعنى ، فتحدث في اللفظ صورة تعبيرية ترقى إلى حد الصور الجمالية ولكنه أدرك إلى جانب ذلك أن المعنى الشعري لا يكون دائماً في ظاهر اللفظ لأن تشكيل الصورة في المعنى في صيغ البلاغة المختلفة يحكمها السياق الدلالي أكثر مما يحكمها المعنى الوصفي المباشر ؛ أي الحديث عن المعنى ، كمدلول أدبي مخصوص بالبيان، فالبيان حسب الجاحظ هو كشف عن قناع المعنى "والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان" وعلى قدر وضوح الدلالة البيانية في التعبير البياني " يكون إظهار المعنى".¹⁸ وإننا نجد في حديث

الجاحظ عن البيان إدراكه لوجود مستويين للغة ؛ المستوى الصفري والمستوى البياني ، وما دام قد استوعب الجاحظ هذين المستويين فإننا نستنتج استيعابه غير الصريح للنظرية الانزياحية.

فمن أشكال التعبير البياني عند الجاحظ مستويان من التعبير "الدلالي المفضي للفهم أحدهما: استعمال عادي مألوف يخلو من كل سمة أسلوبية نوعية ، يستعمل من قبل فئة من المجتمع يسميها العامة حيناً والناس حيناً آخر ، وتكون وظيفته مجرد إفهام الحاجة والرغبة دون تفنن في الأداء وهو ما وصفه بمستوى الصفر من الدلالة ، أما الثاني: هو استعمال اللغة الموسوم بسمه فنية خاصة ، وهو المستوى الذي يبرز فيه تحول الظاهرة اللغوية من مجرد الإبانة إلى مجرى البيان الفصيح ويعتمد المستوى الثاني من مستويات التعبير الدلالي على الطاقة الإيحائية في الظاهرة اللغوية أكثر من اعتماده على طاقاتها التصريحية باعتبار ذلك من مميزات لغة الخلق الفني وبالتالي اللغة الأدبية .

وحسب الجاحظ أن الطاقة الإيحائية في الظاهرة اللغوية تعتمد توظيف المجاز والدلالة الاشتقاقية في توزيع طاقة اللغة المعنوية وذلك بنقل المعنى الحقيقي إلى معان دلالية مختلفة بحكم الصلة والمناسبة السياقية بين الألفاظ فيما اصطلاح البلاغيون على تسميتها "بعلاقات المجاز" والتي تكسب اللغة زخماً كيمياً في التعبير¹⁹.

ومنه ندرك أن الجاحظ قد أدرك الانزياح حتى وإن تحدث عن اللفظ والمعنى، فما الانزياح اللغوي والدلالي إلا مستجدات اصطلاحية في الدرس اللساني الحديث ، وما هي إلا تطور لمصطلحي اللفظ والمعنى وما يتشعب عن ذلك من دراسات ومفاهيم لغوية ودلالية ؛ مع العلم أن الجاحظ قد انزاح للفظ وناصره بمعنى أنه يقدم الانزياح اللغوي في مرتبة أولى من الانزياح الدلالي.

2- الانزياح عند البلاغيين :

2-1- الانزياح عند عبد القاهر الجرجاني :

مما لا شك فيه أن الدراسات اللغوية اللسانية الحديثة ، لم تكن لتوجد لولا تراثنا إذ نظروا لها فكانت أن ساعدت الدراسات المستجدة، ومن هذه القضايا قضية اللفظ العربي الذي ازدهر على أيدي بلاغيين ولغويين، تناولوا قضايا لغوية و دلالية ، وذلك لأهميتها في الكشف عن فهم الأدباء والبلاغيين لآلية التعبير الشعري ، بل والأدب عموماً.

وقد كان من بين هؤلاء البلاغيين "عبد القاهر الجرجاني" من خلال كتابه "دلائل الإعجاز" الذي أقر بضرورة اتحاد اللفظ والمعنى ، كما فطن إلى حقيقة لغوية دلالية تتمثل في ضرورة وهي أنه بتغير المعنى يتغير اللفظ وهو ما يوازي ويقابل الانزياح اللغوي والدلالي بالاصطلاح الحديث، لكننا سنتناول دراسة الظاهرة الانزياحية عند البلاغي "عبد القاهر الجرجاني" أي الانزياح في التراث لاعتقادنا أن هذا البلاغي - عبد القاهر الجرجاني - هو أحسن من مثل التراث العربي .

[تميز "عبد القاهر الجرجاني" عن غيره من البلاغيين بمعارضة المعايير الجاهزة السابقة للنصوص ، وبذلك اختلف في فهمه للمعنى وعلاقته باللفظ ، من خلال آراءه الفذة فيما يتعلق بترتيب المعاني وترتيب الألفاظ والعلاقة بين هذين الترتيبين أثناء عملية التأليف]²⁰ ، و لم يعن " الجرجاني " اهتمامه لقيمة اللفظة المفردة، أو لقيمة معناها القاموسي، بل إزاء قيمتها في سياق الكلام، وهو ما تقوم عليه نظريته وهي نظرية النظم إذ جعل المعاني في المرتبة الأولى والألفاظ تابعة لها، وعنده أن التعبير لا يتعلق بمعاني الألفاظ مفردة دون تقدير لمعاني النحو فالمعنى عنده هو كيفية النظم، وأنه في انخيازنا للفظ تكون عملية قتل للفكر ، لأننا نستطيع أن نتصور الفصاحة والبلاغة في اللفظة المفردة ، وإنما هي في تلك العملية الفكرية التي تصنع تركيباً من عدة ألفاظ²¹ ، فالدلالة هي نتيجة لضم الكلم بعضها إلى بعض وسبيل ذلك كما قال الجرجاني هو توخي معاني النحو وأحكامه، فلا " نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك

"²²، فالمعاني عموماً لا تقوم إلا بصحة معاني النحو، أما معاني الشعر الخاصة فلا تقوم إلا بتحديد معاني النحو وبابتكار العلاقات والتراكيب النحوية وصحتها طبعاً، لأن صحة النظم تتوقف على صحة الترتيب الصحيح المخصوص للكلمات، فمعاني النحو تعلق شأنها عن معاني الألفاظ المفردة أو المفردات القاموسية، وإنما تتجلى هي في قيمة التركيب النحوي ومراعاة كل شروطه، وليس هذا فحسب، بل ما تؤديه إضافة إلى ذلك من المعاني الراقية التي تتقبلها النفس العاقلة الباحثة عن الجمال"²³، فيقول الجرجاني: "وليس عندنا في وجوه الخطأ اللغوي أكبر ولا أعظم من أن يظن امرؤ أن اللغة بالمفردات لا بالأوضاع والتراكيب"، ولكن "ليس القصد معرفة قواعد النحو وحدها، بل ما تحدثه هذه القواعد وما سيتبعه من معنى وما يتولد عن النظم من مدلول" إذ أن الغرض ليس "بنظم الكلم إن توالى ألفاظها في النطق بل إن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل".²⁴

ويتضح لنا جلياً أن الجرجاني مصر على موقفه من عدم الفصل بين ثنائي اللفظ والمعنى، بل جعل الصورة الثالثة وأقربها كتعبير عن كيفية النظم، إذ لا وجود لمعان عارية بل هناك معان خاصة فالمعنى لا يوجد بلا لفظ إنه قائم ضمن عملية النظم فالجرجاني وحد اللفظ والمعنى في حيز الدلالة، فأى تغير في نظم الألفاظ يؤدي إلى تغير في المعنى، ويقول في رده على القائلين بتزايد الألفاظ دون تزايد في المعاني ما يلي: "مما يعتمدونه ويرجعون إليه قولهم: إن المعاني لا تتزايد وإنما تتزايد الألفاظ وهذا كلام إذا تأملته لم تجد له معنى يصح عليه غير أن تجعل تزايد الألفاظ عبارة عن المزايا التي تحدث من توخي معاني النحو، وأحكامه فيما بين الكلم، لأن التزايد في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ونطق لسان محال"²⁵، فالجرجاني ينتصر للمعنى ويرفض المفاضلة بين الألفاظ كمفردات، وكما اعتبر المفردات تابعة للمعاني، اعتبر كذلك الأشكال اللغوية أي الألفاظ المنظومة تابعة للأفكار و في مرحلة لاحقة تأتي، بعد أن يكون الفكر قد قدر المعاني في النفس، وهذا دائماً في سياق إقراره بأولوية المعنى على اللفظ.

فيقول: "لا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وإنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تم ذلك أتبعته الألفاظ وقفوا بها آثارها، وإنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تنجح إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة لها، وإن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"²⁶ والحقيقة أن القضية ليست قضية سابق و لاحق و لا قضية انخياز إلى الألفاظ المنظومة على حساب الألفاظ المفردة فالجرجاني يرى أن هناك تلازماً بين المعنى واللفظ المنظوم "زمنياً" ويؤدي هذا إلى تلازم عمليتي ترتيب المعاني والألفاظ، وهذا التلازم يعطي المعاني الأولوية من حيث أن المعنى لا يوجد إلا ضمن عملية ترتيب الألفاظ، بينما تقوم اللفظة بذاتها مجردة، ثم تشرك في منظومة خدمة لتحقيق المعنى، وبذلك يتحقق المعنى بالتلازم الزمني مع انتظام الألفاظ وما يفضي إلى حل التناقض هو تمييز الجرجاني بين المعاني والأفكار، فالفكر هو عملية توخي المعاني واستنباطها عبر تقدير معاني النحو أي توخي المعاني في تقدير التراكيب أو العلاقات بين الألفاظ المفردة، فبذلك يكون الفكر جهداً يبذل لترتيب المعاني في النفس يرافقه ترتيب للألفاظ لا يحتاج إلى إعمال فكر: "واعلم أي لست أقول إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة أصلاً ولكني أقول إنه يتعلق بها مجردة من معاني النحو ومنطوقاتها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوحيها فيها".

وزيادة في التوضيح، ينطلق الفكر من معاني الكلمات المفردة، ليقدرها في الكلمات المركبة أو المنظومة، تلك التي يسميها عبد القاهر معاني النحو، هذا التقدير يكون في اتجاه تحقيق المعنى الذي يتم بانتظام الألفاظ²⁷، كما قد توصل "الجرجاني" إلى التمييز بين نوعين من المعاني، معاني عامة تتميز بها كل أنواع الخطابات العامة المتداولة فهي معاني عقلية والتي لا تصبو إلى

أية غاية فنية جمالية أو المعاني الخاصة فهي تخيلية خاصة بالشعر ولغة الجمال والفن والأدب ، بمعنى أن عبد القاهر الجرجاني يصنف الكلام على ضربين من خلال مؤلفه "دلائل الإعجاز " فيقول: "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج عن الحقيقة ، فقلت : خرج زيد و بالانطلاق عن عمرو، فقلت: عمرو منطلق، وعلى هذا القياس ...؛ وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يقتضي موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض وإذ قد عرفت هذه الجملة ، فهائنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: المعنى ومعنى المعنى، ونعني بالمعنى " المفهوم من ظاهر اللفظ وبمعنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفرض بك ذلك المعنى إلى معنى آخر... " ²⁸، ونعتقد أننا في غنى عن التعليق إزاء هذا القول الذي يضمن تعريفاً يعد من أتم تعريفات "الانزياح الدلالي" وهو معنى المعنى ؛ و هو المعنى الخاص الفني الضمني الذي يحتاج إلى تأويل وابتكار وحتى يتحقق ذلك ينبغي الاجتهاد في سبيل خلق المعاني، وهو ما يناقض الفهم التقليدي للطبع والصنعة ، ويقول الجرجاني من خلال مؤلفه "أسرار البلاغة " : "ومن المركز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى ، وبالميزة أولى ، فكان موقعه من النفس أجل وألطف ، وكانت به أضن وأشغف وهذا خلاف ما عليه الناس ألا تراهم قالوا "إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك..." ²⁹.

فالانزياح الدلالي من الصعب تحقيقه ونيله ، وإذا تحقق ذلك نكون قد حققنا أعمالاً أدبية وشعرية خاصة محملة بمعاني المعاني لأن هذا " ... الضرب من المعنى، كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه، وكالعزير المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه ، ثم ما كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه ، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه، فما كل أحد يفلح في شق الصدف ويكون في ذلك من أهل المعرفة..." ³⁰.

ما يمكننا التأكد منه أن البلاغي عبد القاهر الجرجاني قد توصل إلى حقيقة لغوية دلالية لسانية هي الانزياح اللغوي والدلالي من خلال دراستنا له ولنظريته، لكن مع العلم أنه أعطى القيمة الكبرى والمزية العظمى للانزياح الدلالي في تحقيق معاني المعاني في الشعر والأعمال الأدبية والفنية.

2-2- الانزياح عند "ابن رشد":

لقد برزت في مواطن كثيرة من تراثنا العربي، وعلى يد جماعة من عظماء التراث اهتمامات بارزة بالانزياح [والذي تجسد في الحديث عن التوسع "عند سيبويه" والمجاز "عند أبي عبيدة" وشجاعة العربية "عند ابن جني" ³¹ ومبصطلحات أخرى مثل النقل، العدول، التغيير...]

ونجد أن ابن رشد قد وسع البناء اللغوي ، وخرج منه بمفهوم مولد تحت عنوان التغيير والتغيير عند "ابن رشد" صياغة متقدمة ، تاريخاً وفهماً، للانزياح الشعري ³².

وقد تناول سابقو "ابن رشد" التغيير، فاستعمله "ابن سينا"، والذي يرى أن التغيير هو : ألا يستعمل "القول" كما يوجبه المعنى فقط بل أن يستعير ويبدل ويشبه ³³، فالتغييرات حسبها تلتحق بالمحاكاة من حيث تخرج من العادي فتعطي معرفة جديدة . ولنعد لـ "ابن رشد" الذي استفاد من اجتهاد من سبقه في توسيع مفهوم التغيير فنقله من البداية من أن يكون ثامن ثمانية نعوت للاسم إلى أن يكون صفة لسبعة منها مقابل واحد على نحو ما تبينه الخطاطة التالية بعد نص كلام "ابن رشد" "في تلخيص فن الشعراء": "قال "أي أرسطو": وكل اسم فهو إما حقيقي وإما دخيل في اللسان ، وإما منقول نادر الاستعمال، وإما مزين وإما معمول، وإما معقول وإما مفارق، وإما مغير."

دخيل منقول مزين الخطاطة: معمول التغيير "الانزياح"³⁴ معقول مفارق مغير وما نلاحظه أننا في دراستنا لـ "ابن رشد" نجد في الخطوة الأولى قدم تصور أرسطو ولكن في الخطوة الثانية أعاد بناء الموضوع، [المغير حسبه هي الأسماء المستعارة التي تستعار إما من التشبيه والنقل موسعا هذا المفهوم الأخير ليستوعب صور التقابل "الدلالي" ثم تجاوز "ابن رشد" الحدود الدلالية مستوعبا جميع مكونات الشعر دلالية وتركيبية وصوتية مصرحا بالأساس الذي يحكم التغيير؛ الخروج عن العادة. قال: "والقول إنما يكون مختلفا، أي مغيرا عن القول الحقيقي من حيث توضع فيه الأسماء متوافقة في الموازنة والمقدار، وبالأسماء الغريبة، وبغير ذلك من أنواع التغيير...

والتغييرات تكون بالموازنة، والموافقة والإبدال والتشبيه، وبالجملية بإخراج القول على غير مخرج العادة مثل القلب والحذف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير وتغيير القول من الإيجاب إلى السلب ومن السلب إلى الإيجاب، وبالجملية من المقابل إلى المقابل وبالجملية بجميع الأنواع التي تسمى عندنا مجازا". وما تؤدي هذه كلها في المجال اللغوي الانزياحات دلالية مغايرة لما ألف وخارجة عن العادة وهذا ينهي "ابن رشد" إلى تحديد المكون الشعري وحصره في التغييرات التي بدونها لا يكون الشعر شعرا، بل مجرد أوزان وبذلك فقد تحول المكون الشعري الزائد على مجرد الوزن من الحكاية وتمثيل الأفعال في إطار سردي إلى تغيرات و انزياحات لسانية تتصل بالمفرد "الأسماء" داخل الجملة ثم بالبناء على الجمل في إطار لساني³⁵، ولضبط مفهوم التغيير اهتم "ابن رشد" بنعت الأصل المغير أو المنزاح عنه أي المعيار، وهكذا نجد منظومتين من الألفاظ الدالة على كل من المعنيين:³⁶

الانزياح المعيار الغريب المغير اللغوي - الدلالي المختلف المنقول المبتدل الحقيقي المستولي الأهلي وقد ألح "ابن رشد" على ضرورة التفاعل بين المعيار والانزياح، أو المغير والمستولي حتى لا يقع خلل في توازن الكلام؛ [فلا يفرط الشاعر في استعمال الأسماء الغريبة، المغيرة، المنزاحة فيخرج إلى حد الرمز، ولا يفرط أيضا في استعمال المبتدل، الحقيقي، المستولي فيخرج عن طريقة الشعر إلى الكلام المتعارف المتداول وبذلك ناقش حدود التغيير في الشعر والخطابة من وجهة التركيب والبساطة، إذ اعتبر التغييرات المركبة مزية شعرية، و اعتبر البسيطة خاصة خطابة، وفي إطار ربط "ابن رشد" بين التغيير والتحليل فإن التغييرات المركبة ذات المزية الشعرية يتوجه التحليل فيها توجهها سيكولوجيا، أي نحو الآثار المحتملة للتغيير في نفس المتلقي، وهنا تظهر اللفظة التي تمثل الوجه الآخر لعملية الانزياح وهي الغرابة، وإذا بلغ الانزياح حد الغرابة فهو انزياح فعلي وحقيقي، لأنه تجاوز حقا ما هو مألوف ومعتاد من الشعر والكلام إلى درجة الغرابة ومنه العجب، فالأسماء المنقولة الغريبة هي الأخص بالشعر في أول أمرها، أما إذا تداولت عبر الزمن فإنها تصبح ضمن أصناف المستولية³⁷

هكذا كانت لنا الفرصة في رحلتنا الدراسية للظاهرة الانزياحية في التراث العربي القديم و التي كانت نظرة موجزة لكن و رغم ذلك قد كانت من تأصيل عظماء التراث ما أوحى لنا جليا بروز جذور و أصول عربية للانزياح .

الهوامش :

¹ محمد حمدي بركات أبوعلي: البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية و نظرية السياق، دار وائل للنشر، الأردن، د ط 2003، ص 176.

² عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بـ "سيبويه": "الكتاب"، ت/إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط 1، 1420هـ/1999م، مج 1، ص 7.

³ لخوش جار الله حسين: البحث الدلالي في كتاب سيبويه، دار دجلة، الأردن، ط1، 2007، ص 297.

⁴ المرجع نفسه، ص 395.

⁵ المرجع نفسه، ص 299.

⁶ المرجع نفسه، ص 300.

⁷ سيبويه: الكتاب، ص 68.

- ⁸ لخوش جارالله حسين: البحث الدلالي في كتاب سيبويه ، ص 300.
- ⁹ سيبويه: الكتاب ، ص 68 .
- ¹⁰ لخوش جارالله حسين: البحث الدلالي في كتاب سيبويه ، ص 300.
- ¹¹ سيبويه: الكتاب ، ص 233 .
- ¹² - لخوش جارالله حسين: البحث الدلالي في كتاب سيبويه ، ص 399.
- ¹³ - المرجع نفسه ، ص 400.
- ¹⁴ سيبويه: الكتاب ، ص 49.
- ¹⁵ ماهر مهدي هلال : رؤى بلاغية في النقد و الأسلوبية ، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر طبعة 2006 ، 2006، ص 100.
- ¹⁶ ماهر مهدي هلال: مرجع سابق ، ص 101.102.
- ¹⁷ المرجع نفسه ، ص 102.103.
- ¹⁸ ماهر مهدي هلال: مرجع سابق ، ص 107.108.
- ¹⁹ المرجع نفسه ، ص 111 - 114 .
- ²⁰ جودت فخر الدين : شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن هجري ، دارا لحرف العربية ، ط 1424هـ - 2004م ، ص 65.
- ²¹ بكري شيخ أمين : البلاغة العربية في ثوبها الجديد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1979م ، ج 1 ص 21.
- ²² نور الهدى لوشن : علم الدلالة "دراسة و تطبيق" ، جامعة الشرق ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، دط ، دت ، ص 45 .
- ²³ المرجع نفسه ، ص 45.
- ²⁴ المرجع نفسه ، ص 46.
- ²⁵ - جودت فخر الدين : شكل القصيدة العربية في النقد العربي ، ص 67-68.
- ²⁶ - جودت فخر الدين: مرجع سابق ، ص 69 .
- ²⁷ المرجع نفسه ، ص 68-70.
- ²⁸ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ت/محمد رشيد رضا ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان دط ، دت ، ص 177.
- ²⁹ عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة ، ت/محمد الفاضلي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، دط ، دت ، ص 105.
- ³⁰ عبد القاهر الجرجاني : مرجع سابق ، ص 107.
- ³¹ محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، إفريقيا الشرق ، بيروت ، لبنان ، دط ، 1999م ، ص 491.
- ³² المرجع نفسه ، ص 253.
- ³³ المرجع نفسه ، ص 260.
- ³⁴ محمد العمري : مرجع سابق ، ص 263.262.
- ³⁵ المرجع نفسه ، ص 266.267.
- ³⁶ المرجع نفسه 268 .
- ³⁷ محمد العمري ، مرجع سابق ، ص 269 . 270.